مجلة المرابط

العدد : ٢١٩ الموافق في محرم ١٤٢١ هجري ٥ / ٢٠٠٠ ميلادي

تعريف بكتاب : بلاد الشيشان قلعة التحدي والصمود	بقلم : التحرير

نقل الأستاذ عبد الرفيع محمد العلج في كتابه القيم : « **بلاد الشيشان قلعة التحدي والصمود** » ، ترجمة أبيات للشاعر الروسي « لير منتوف » يصف فيها سكان القوقاز فيقول :

شرسة هي القبائل التي تقطن تلك الشعابْ
معبودها الحرية (!) والكفاحُ قانونها الوحيد
قوية في صداقتها لكنها أقوى في الانتقام
لا تَدين لسيدٍ يملي عليها تعاليمه من علِ
تجزي الخير بالخير وتردُّ الشر بالشر
ولا حدود لديها للكراهة ولا للمحبة

ويُجمع العارفون على أن الشيشان يتربعون على قمة هرم شعوب القوقاز ، الذين يتكلمون أكثر من ٥٠ لغة ، بما يتصفون به من خصال : الشجاعة والتضحية ورفض الذل والضيم .

تناول الأستاذ عبد الرفيع المسألة الشيشانية فرسم صورة للتطورات التاريخية التي عرفتها بلاد القوقاز ، وصولاً إلى إعلان الاستقلال عام ١٩٩١م والحرب التي بدأت عام ١٩٩٤م وانتهت عام ١٩٩٦م باتفاق يحمل في طياته الاعتراف بهزيمة الجيش الروسي ، وباستقلال الشيشان ضمن شروط ليس هنا محل تفصيلها .

لقد تحدث المؤلف عن الموقع الجغرافي فذكر أن بلاد القوقاز تتكون من سلاسل جبلية شاهقة ووعرة ، تمتد من بحر الخزر (قزوين) شرقاً إلى البحر الأسود غرباً ، ومن السهول الشمالية والجنوبية لتلك الجبال . وتعتبر القوقاز جزءاً من أوروبا ، وهي الفاصل الطبيعي بين قارتي أوروبا وآسيا ، وتقع الشيشان في السهول الشمالية وتطل على بحر الخزر .

ويذكر المؤلف أن القوقاز ، التي تتمتع بموقع ممتاز ، غنية بالموارد الزراعية والثروة الحيوانية ، وتعد ثاني أكبر منطقة احتياط للنفط بعد الجزيرة العربية ، ولذلك كانت محل نظر الطامعين ،

وبخاصة الروم والفرس قديماً ، والروس والأمريكان حديثاً .

ثم يتحدث المؤلف عن القوقاز والإسلام ، فيؤكد بأن المسلمين قد وصلوا إلى تلك الديار في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، فوجدوا في أهلها مقاومة شديدة ، وهذا يفسر البطء في انتشار الإسلام ، فقد احتاج المسلمون إلى قرون حتى تمكنوا من ترسيخ الإسلام في العقول والقلوب ، وهذا أكسب القوقازيين قدرة نادرة على مقاومة المحتلين . وكانت أوضاع السلطة الإسلامية في القوقاز تتأثر كثيراً بوضع السلطة المركزية ، وبالفتن التي تعصف بالمسلمين .

ويتناول الأستاذ عبد الرفيع الاجتياح المغولي بقيادة جنكيزخان ، وما أحدثه من ويلات في القوقاز ، مما اضطر كثيرين إلى الهجرة والرحيل ، بل إن نسبة منهم قد بيعوا كأرقاء .. وذكر أن حاكم مصر نجم الدين أيوب قد اشترى مجموعة منهم ، وهؤلاء هم المماليك الذين آل إليهم حكم مصر ، وكان لهم دور فاصل في دحر المغول (عين جالوت) وأسهموا في التصدي للصليبين ، وقاموا بتصفية قواعدهم في بلاد الشام .

وتحدث المؤلف بإسهاب عن الوجود الروسي في المنطقة فأشار إلى أن الخلافات الدامية بين العثمانيين والصفويين في إيران قد مهدت للمطامع الروسية، فاحتلت الامبراطورية الروسية أجزاء من القوقاز ، وأن محاولات العثمانيين قد باءت بالفشل العسكري ، ونجحت في ميدان الدعوة ، ويرجع السبب في الهزيمة العسكرية إلى تعاون الصفويين مع الروس ضد العثمانيين ، وتنازلهم عن أجزاء من الأراضي القوقازية ! وقد كانت بدايات الاحتلال الروسي في أواسط القرن العاشر الهجري (٩٥٩هـ) وفي عام (١٢٥٨هـ) وضع الروس يدهم على المنطقة وما جاورها .

وتناول الكاتب المرحلة الشيوعية (الثورة البلشفية) التي اندلعت عام ١٩١٧م ، فذكر أن شعارات التحرر وحق تقرير المصير قد أكسب الثائرين تعاطف سكان القوقاز ، الذين أيدوا الثورة وسارعوا إلى تكوين (حكومة القوقاز الشمالي) التي اعترفت بها تركيا وألمانيا والنمسا وهنغاريا . ولكن البلاشفة تمكنوا من إقناع المثقفين القوقازيين بتكوين «جمهورية الجبال السوفييتية» على أن تمنح لها صلاحيات واسعة تمهيداً للاستقلال .

وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية وحاول الألمان ، الذين وصلت قواتهم إلى القوقاز ، كسب

تأييد السكان . وبعد هزيمة ألمانيا قرر ستالين في ١٩٤٤/٠٢/٢٢م نفي شعوب بأكملها من القوقاز ، بتهمة « التآمر مع النازية » وفي عام ١٩٥٦م ردَّ ستالين نفسه إلى المبعدين اعتبارهم ، وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم .

ويوم تضعضع الاتحاد السوفييتي واستقلت جمهوريات كثيرة ، سارع الكرملين إلى إعادة ترتيب ما أسموه « روسيا الاتحادية » ورفضت جمهورية الشيشان التوقيع على الاتفاق ، وأعلنوا استقلالهم عام ١٩٩١م .. وفي أجواء رفض تقرير المصير كانت الحرب التي بدأت عام ١٩٤٤م وانتهت في ١٩٩٦م .

ويصل المؤلف من استعراض تاريخ القوقاز إلى أن جذور الحرية متقدة في قلوب سكان هذه المنطقة ، وأن وجود المنافقين والوصوليين لا يقدح في هذه الحقيقة ، التي عبر عنها أحرار هذه البلاد مرة بعد مرة ، ولا ينال من تقرير الواقع جبروتُ القوة الاستعمارية ، والتي قد تتمكن من إخماد ثورة ، ولكنها لن تستطيع انتزاع الكرامة من القلوب التي تتوارث العزة كابراً عن كابر ..

ونقول نحن في الحرب الدائرة الآن في الشيشان : لقد تمكن الروس من تصوير ثورة مسلمي الشيشان بأنه عمل إرهابي تقوم به مجموعة من الأصوليين الإسلاميين ، ولاقت هذه الخطة قبولاً لدى حكام البلاد الإسلامية – لاعتبارات لا تخفى على اللبيب – واستحسن الغرب الذي يسترضيه الجميع هذه الخدعة ، فأيد حكام الغرب ما تقوم به روسيا .. وإن اختلفوا معها في أسلوب المعالجة .. وقد تتمكن روسيا من القضاء على هذه الثورة .. ولكنها لن يقر لها قرار إلى أن ترفع يدها عن الشعوب المستضعفة.